

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

الْقِصَصُ الدِّينِيُّ

عُمَرُ

فَبَيَّتَ الْمَقْلَكُ

عبد الحميد جودة السحار

٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا
قَوْمًا آخَرِينَ . »

(قرآن كريم)

(سورة الدخان)

كانت جيوش المسلمين تحارب الروم في الشام ،
فكان أبو عبيدة و خالد بن الوليد في شغل بفتح
جَمَصَ وحلب وأنطاكية . وتقدم عمرو بن العاص ،
وحاصر بيت المقدس ، وكان قائد جيوش الروم
أرطوبون ، وكان داهية من داهيتهم ، فوجد عمرو في
قتاله تعباً شديداً ، فكتب إلى عمر يصف له ما يلاقيه
من شدة ، ووصف له ذكاء أرطوبون ، فقال عمر بن
الخطّاب لمن حوله : « قد رمينا أرطوبون الروم
بأرطوبون العرب ، فانظروا عم ينفرج » .

كان عمرو داهية من ذكاء العرب ، وكان
أرطوبون داهية من ذكاء الروم ، فقال عمر : إن
الحرب تدور الآن بين داهية العرب وداهية الروم ،
فلننظر من منهما ينتصر !

كان عمرو بن العاص يُرسل الرُّسلَ للتفاوض في الصُّلح ، وأمرهم أن يُوافوه بمداخل العدو ، ومعرفة كل شيء عنه ، حتى يستفيد بما يجمع من معلومات في حربه ، ولكن الرُّسل لم يَشْفُوا غليله ، فرأى أن يحتال ، وأن يذهب بنفسه لمقابلة أرطبون ، دون أن يكشف شخصيته .

وتنكر عمرو ، وسار إلى أرطبون ، ودخل عليه كأنه رسول ، وجعل عمرو وأرطبون يتحدثان ، فداخلت أرطبون الرؤية في شخص محدثه ، وجدّه واسع الأفق ، غزير المعرفة ، فقال في نفسه : « والله إن هذا لعمرو ، أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ! » .

ثم دعا أرطبون جندياً من رجال حرمه ، فأسر إليه : إذا مرّ العربيُّ بمكان كذا ، أن يقتله . وفطن عمرو إلى أن في الأمر خديعة ، وأن أرطبون يُدبر قتله ، فقال لأرطبون :

— قد سمعت مني وسمعت منك ، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً ، وأنا واحد من عشرة ، بعثنا عمرو بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاشفنه ، ويشهدنا أمورَه ، فأرجع فأتيتك بهم الآن ، فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى ، فقد رآه أهل العسكر والأمير .

وطمع أرطبون في أن يقتل العشرة الذين يُشيرون على الأمير ، فأرسل إلى الحارس الذي أسراً إليه بقتل العربي أن يتركه ، وخرج عمرو مُسرعا بعد أن خدع أرطبون الروم ، ونجا بنفسه من القتل ، وعرف أرطبون بعد ذلك ، أن الذي كان يحادثه هو عمرو بن العاص نفسه ، وأنه خدعه لما قال له : إنه واحد من عشرة يستشيروهم الأمير ، وأنه راجع ليأتيه بهم ، فقال أرطبون في حسرة :

— خدعني الرجل ، هذا أذهي الخلق .

وبلغ عمرو بن الخطاب ما حدث ، فقال :

- ٦ -
- غلبه عمرو ، لله عمرو !

٢

كان حصارُ المسلمين لبيت المقدس في فصل الشتاء والبرد ، فأقاموا عليها أربعة أشهر في أشد قتال ، مع الصبر على المطر والثلج ، ورأى عمرو أن يطلب من عمر بن الخطاب مددا ، فكتب إليه ، فلما جاء كتاب عمرو إلى أمير المؤمنين ، قرأه على الناس ، وسأهم : أخرج بنفسه ، أم يرسل الجنود ؟ فقال له عثمان بن عفان :

- لا تركب إليهم ، ليكون أحقر لهم .

وقال له علي بن أبي طالب :

- سر إليهم ، فقد أصاب المسلمين جهد عظيم ،

من البرد والقتال وطول المقام ، فإذا أنت قدمت عليهم ، كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح ، ولست آمن أن يأسوا منك ومن

الصُّلْحَ ، وَيُمْسِكُوا حَصَنَهُمْ ، وَيَأْتِيَهُمُ الْمَدَدُ مِنْ
بِلَادِهِمْ وَطَاغِيَتِهِمْ ، لَا سِوَاَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ مُعَظَّمٍ
عِنْدَهُمْ وَإِلَيْهِ يَحْجُونَ .

مالِ عُمَرُ إِلَى رَأْيِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَدْ رَأَى
فِي سَقُوطِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الْقَضَاءَ عَلَى ذَوَلَةِ الرُّومِ فِي
الشَّامِ ، فَاسْتَخْلَفَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الْمَدِينَةِ ،
وَكُتِبَ إِلَى قَوَّادِهِ أَنْ يَقَابِلُوهُ فِي الْجَابِيَةِ ، الْقَرِيبَةِ مِنْ
بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

وَرَكِبَ عُمَرُ بَعِيرًا لَهُ ، وَسَارَ وَمَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ
الصَّحَابَةِ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا قِرْبَةٌ مَمْلُوءَةٌ مَاءً ، وَجَفْنَةٌ
لِلزَّادِ ، وَكِسَاءٌ مِنَ الصَّوْفِ ، يَجْلِسُ عَلَيْهِ إِذَا رَكِبَ ،
وَيَفْرِشُهُ تَحْتَهُ إِذَا نَامَ ، وَعَلَيْهِ مِرْقَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ، فِيهَا
أَرْبَعُ عَشْرَةَ رُقْعَةً بَعْضُهَا مِنْ أَدِيمٍ !

وَدَخَلَ عُمَرُ الشَّامَ ، تَلُوحُ صَلْعَتُهُ لِلشَّمْسِ ، لَيْسَ
عَلَيْهِ قَلَنْسُوءَةٌ وَلَا عِمَامَةٌ ، وَرَاحَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ ،
فَرَأَى قُصُورًا وَبَسَاتِينَ ، فَتَلَا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : « كَمْ

تركوا من جناتٍ وغُيون ، وزُرُوعٍ ومَقامٍ كريم ،
ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قومًا
آخرين .

وأقبل القَوَادُ يستقبلون أميرَ المؤمنينَ وعليهم الحرير ،
فغضبَ عُمر ، وسار إليهم ليحصرَهم ، فما كان
الحريرُ لبسَ القَوَادِ المُتَشَفِّين ، فاعتذروا إليه بأن عليهم
السَّلاح ، وأنهم يحتاجون إليه في حروبهم ، فسكت
عنهم ، ثم راح يصافحهم ويعانقهم .

وأقبل المسلمون يُسلمون على عُمر ، ثم صَلَّى
عُمرُ بالمسلمين صلاةَ الفجر ، ثم خطبهم ، فقال :
— أيُّها النَّاسُ ، أَصْلِحُوا سَرَائِرَكُمْ تَصْلَحْ
عَلَانِيَتُكُمْ ، وَاَعْمَلُوا لِآخِرَتِكُمْ تَكْفُوا أَمْرَ دُنْيَاكُمْ .

وجلس مع القَوَادِ يُحَدِّثُونَهُ بِمَا لَقُوا مِنَ الرُّومِ ، إلى
أن حضرت صلاةَ الظُّهر ، فطلب النَّاسُ من عُمرَ أن
يطلبَ من بلالٍ مؤذِّنِ الرُّسُولِ أن يؤذِّن ، فما أذَّن
بلالٌ بعد موتِ الرُّسُولِ . طلب عُمرُ منه أن يؤذِّن ،

فقام بلالٌ وأذن بصوته العذبِ الحنون ، الذى طالما
تردّد في جنبات المدينة في عهد مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ
عليه وسلّم ، فهاج صوتُ بلال الذكرياتِ ، فلما
قال : « الله أكبر » ، خشعت قلوبُهم ، واقشعرت
أبدانهم ، فلما قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ،
وأشهد أن مُحَمَّدًا رسول الله » ، بكى الناس بكاءً
شديداً ، لذكرِ الله وذكْرِ رسوله ، وكاد بلالٌ يقطعُ
الأذان ؛ ولكنه استمرَّ وقد شَرِقَ بدموعه ، وبكى
عمرُ حتى بلَّ لحيته ، وبكى الذين لم يروا مُحَمَّدًا
صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم ، لبكاءِ إخوانهم .

٣

كان عُمر بالجابية ، فإذا بفُرسان مُقبلين في أيديهم
السُّيوف ، فأسرع المسلمون إلى سلاحهم ، فقال
عمر : إن هؤلاء قومٌ يستأمنون .

واقْتَرَبَ فُرْسَانُ الرُّومِ ، فإِذَا بِهِمْ رَسْلُ أَسْقَفِ
بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، قَدْ جَاءُوا يُصَالِحُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .
عَرَفَ أَرْطَبُونَ مَقْدَمَ عُمَرَ ، وَعَرَفَ مَا نَزَلَ بِالرُّومِ
عَلَى أَيْدِي الْعَرَبِ ، فَانْسَحَبَ مُسْتَخْفِيًا إِلَى مِصْرَ ،
وَتَرَكَ بِطَرِيقِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ يُفَاوِضُ الْمُسْلِمِينَ فِي
تَسْلِيمِ الْمَدِينَةِ .

طَلَبَ الْبَطْرِيقُ أَنْ يُسَلَّمَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ لِعَمَرَ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَرَ عُمَرُ بِالرَّكُوبِ ، فَلَمَّا هَمَّ بِالرَّكُوبِ
عَلَى بَعِيرِهِ ، وَعَلَيْهِ مَرْقَعَةُ الصُّوفِ ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ :
- يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَوْ رَكِبْتَ غَيْرَ بَعِيرِكَ جَوَادًا ،
وَلَبِستَ ثِيَابًا بَيْضًا ، لَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ هَيْبَتِكَ فِي
قُلُوبِ أَعْدَائِكَ .

فَقَالَ عُمَرُ : نَحْنُ قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ ، فَلَا
نَطْلُبُ بَغِيرَ اللَّهِ بَدِيلًا .

وَاسْتَمَرَّ الْمُسْلِمُونَ يَسْأَلُونَهُ وَيَتَلَطَّفُونَ بِهِ ، إِلَى أَنْ
قَبِلَ أَنْ يَخْلَعَ مَرْقَعَتَهُ ، وَلَبِسَ ثِيَابًا بَيْضًا ، وَرَكِبَ

جوادًا من جِياذِ الرُّومِ ، وطرح على كِفِّهِ مِنْدِيلًا
 من الكَتَّانِ ، دفعه إليه أبو عُبيدة ، وسار الجوادُ
 يتختر في مِشِيته ، فلما رأى عمرُ ذلك ، نزل
 مُسرعا ، وقال : أَقِيلُوا عَثْرَتِي ، أَقَالَ اللَّهُ عَثْرَتَكُمْ
 يومَ القِيامةِ ، فقد كاذَ أميرُكم يهلك بما دخل قلبي
 من العُجبِ والكِبَرِ !

وخلع الثوبَ الأبيض ، ولبس مُرَقَّعَةً ، وركب
 بعيره .

وسار عُمرُ حتى بلغ بيتَ المقدسِ ، فَفُتِحَتْ لَهُ
 أَبْوَابُهَا ، وأسرعَ البَطْرِيقُ وأهلُ بيتِ المقدسِ يُرْحَبُونَ
 بِمَقْدَمِهِ ، فقد أَمَّنَهُمْ على حياتِهِمْ وعلى أموالِهِمْ ،
 وترك لهم كَنائِسَهُمْ وَصُلْبَانَهُمْ ، وصالحَهُمْ على
 ألا يُكرهوا على دينِهِمْ ، على أن يُعطوا الجزيةَ .
 وكان سرورُ أهلِ بيتِ المقدسِ بهذا الصُّلحِ عَظِيمًا ؛
 فَأسرعوا يُحَيُّونَ عُمرَ ، فلما رآهم عمرُ في تلكِ

الحالة ، تواضع لله سبحانه وتعالى ، وخرّ ساجداً على قُبْ بَعِيرِهِ .

٤

ودخل عمرُ المسجدَ الأقصى ، أوّلَ قبلةٍ للمُسلمين ، والمكانَ الذي أُسْرِيَ إليه الرسولُ « سبحانَ الذي أُسْرِيَ بَعْدِهِ لَيْلاً مِنْ المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ! » ، وكانَ اللَّيْلُ قد أُرْخِيَ ستائرُهُ ، فذهبَ إلى محرابِ داودَ ، وظلَّ يُصَلِّي لله ربَّ العالمين . ولما أصبحَ الصُّباحُ راحَ يُشاهدُ آثارَ الأنبياءَ ، فرأى محرابَ داودَ ، وصخرةَ يعقوبَ ، وأطلالَ هيكلِ سُلَيْمانَ ، فشكرَ اللهَ أنْ جعلَ فتحَ هذه البلدةِ المقدَّسةِ على يديه .

والتفتَ عمرُ إلى من حوله ، وقال :

— ارقبوا لي كعباً .

كانَ كعبُ الأحبارِ يهودياً ثمَّ أسلمَ ، وكانَ يعرفُ العاداتِ اليهوديةَ ، فلما جاءَ كعبُ قالَ له عُمرُ :

- أَيْنَ تَرَى أَنْ نَجْعَلَ الْمُصَلَّى ؟

فَقَالَ كَعْبُ : إِلَى الصَّخْرَةِ .

فَلَمْ يَعْجِبْ هَذَا الرَّأْيُ عَمْرَ ، فَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ

يَقْدِمُونَ صَخْرَةَ يَعْقُوبَ ، فَقَالَ :

- ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ يَا كَعْبُ ... بَلْ نَجْعَلُ قِبْلَتَهُ

صَدْرَهُ ، كَمَا جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قِبْلَةَ مَسَاجِدِنَا صُدُورَهَا ، فَإِنَا لَمْ نُؤْمَرْ بِالصَّخْرَةِ ،

وَلَكِنَّا أُمِرْنَا بِالْكَعْبَةِ .

فَجَعَلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى صَدْرَهُ ، ثُمَّ قَامَ مِنْ

مُصَلَّاهُ إِلَى كُنَاسَةِ كَانَتْ الرُّومُ قَدْ دَفَنَتْ بِهَا بَيْتَ

الْمُقَدَّسِ فِي زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَرَاحَ يُزِيلُهَا ، وَقَالَ

لِأَصْحَابِهِ :

- اصْنَعُوا كَمَا أَصْنَعُ .

وَلَمْ يَزَلْ عَمْرُ وَالْمُسْلِمُونَ يَزِيلُونَ الْكُنَاسَةَ ، حَتَّى

زَالَ كُلُّ مَا عَلَى الصَّخْرَةِ ، فَقَدْ كَانَتْ الْمَوْضِعَ الَّذِي

أَسْرَى بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَيْهِ .

وَمَ لَعَمْرَ فَتَحْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَعَادَ إِلَى الْمَدِينَةِ ،
فَخَفَّ النَّاسُ إِلَيْهِ يَسْتَقْبِلُونَهُ فَرَحِينَ مُسْتَبْشِرِينَ .

٥

انْتَصَرَ الْمُسْلِمُونَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي الشَّامِ ، فَتَدَقَّقَ
الْمَالُ عَلَى الْمَدِينَةِ تَدَقُّقًا عَظِيمًا ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَاكُنُ
يُحْتَفَظُ بِهَا ، فَكَانَ يُوَضَّعُ فِي الْمَسْجِدِ وَيُقَامُ عَلَيْهِ
حَرَسٌ حَتَّى يُقَسَّمَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ .

كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقْسِمُ الْأَمْوَالَ الَّتِي تَصِلُ إِلَى بَيْتِ
الْمَالِ بِالتَّسَاوَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً ، وَلَكِنْ لَمَّا تَوَلَّى
عُمَرُ الْأَمْرَ ، رَأَى أَنَّ تَسْوِيَةَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا بَعْضُهُمْ
بِبَعْضٍ ، ظَلَمٌ بِالسَّابِقِينَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَكَيْفَ يُسَوَّى
بَيْنَ مَنْ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَحَارَبَ مَعَهُ ، وَمَنْ
أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ وَكَانَ يَحَارِبُ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَامَ
يُخَاطِبُ النَّاسَ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ
أَحَدٍ ، وَمَا أَنَا بِأَحَقُّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ ، وَاللَّهِ مَا مِنْ

المسلمين من أحدٍ إلا وله في المال نصيب ، إلا عبداً
مملوكاً ، ولكننا على منازلنا من كتابِ الله تعالى ،
وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه في
الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل
وغناؤه في الإسلام ، والرجل وصاحبه ، والله لئن
بقيت لهم ليأتين الراعي بجمل صنعاء حظّه من هذا
المال وهو يرعى مكانه .

وجاء إلى المدينة مالٌ كثير ، فقام عمر ، وقال
للناس : أيّها الناس ، قد جاءنا مالٌ كثير ، فإن شئتم
كلنا كيلاً ، وإن شئتم أن نعدّ عدّاً .

فأشار بعضُ المسلمين الذين جاؤوا بلادَ الفرسِ
والرومِ عليه ، أن يُدوّن الدواوين ، أى يكتبَ قوائمُ
بأسماء الناس ، يوضّحَ قرين كلِّ اسمٍ رزقه الشهرى ،
فقال : دوّنوا الدواوين .

وأمر بإحصاء القبائل العربية ، فأحصيت ووضعت
السجلاتُ في صناديقٍ كبيرة ، وقد بدأ عمرُ

بالأقرب للنبي ، ثم فرض لأهل بدر ، ومن بعدهم
لأهل الخديجة وبيعة الرضوان ، ثم لمن بعدهم ،
ولأهل القادسية واليرموك .

وقال عمرُ للناس :

- إني كنت امرأً تاجرًا يُغني الله عيالي بتجارتي ،
وقد شغلتموني بأمركم ، فماذا ترون أنه يحلُّ لي من
هذا المال ؟

فأكثروا القوم ، وعلى بن أبي طالب ساكت .

فقال له عمر :

- ما تقول يا علي ؟

- ما أصلحك وأصلح عيالك بالمعروف ، ليس

لك من هذا المال غيره .

- القول ما قال ابن أبي طالب .

فكان عمر لا يأخذ من هذا المال إلا ما يكفيه

ويكفي عياله ، وحلة الشتاء وحلة الصيف ، فله درُّ

عمر ، لقد أتعب الحكام من بعده .